رهاب الأجانب.. تجارة أساسية لليمين الأوروبي

راشمي روشان لال
كاتبة في العرب ويكلي

في الأيام الأخيرة يدور النقاش بشكل رئيسي في أوروبا حول لحظة دهس حشد من الناس في عرض كرنفال في مدينة فولكمارسن الألمانية الصغيرة، حيث توجهت الأفكار للوهلة الأولى نحو الإرهاب الجهادي أو اليميني المتطرف.

وكما اتضح فيما بعد، قالت شرطة فولكمارسن إنه لا يوجد أيّ مؤشر على أن السائق الألماني البالغ من العمر 29 عاما كانت له دوافع سياسية، وأن تصرفه يوم الـ24 من فبراير الماضي لم يكن بالضرورة هجوما إرهابيا.

وهذا التحليل يستبعد الإرهاب الجهادي أو اليميني المتطرف، لكنه لم يبدد المخاوف بشأن احتمال حدوث تأثير الدومينو.

وقع حادث فولكمارسن بعد أيام قليلة من تعرض ألمانيا لهجومها اليميني المتطرف الثالث منذ ثمانية أشهر. حيث قتل رجل، يدعى توبياس راجين، عشرة أشخاص، معظمهم من أصول مهاجرة، في باريْن في ضاحية هاناو في فرانكفورت.

في الوقت الذي واجهت فيه لندن ومدريد وباريس وبروكسل هجمات جهادية متكررة، كانت هناك رؤية تقر بوجود تهديد إرهابي خطير خلف الرادار

وبحسب ما ورد أعرب المسلح عن وجهات نظر يمينية متطرفة في خطاب اعتراف عثر عليه بعد أن قتل نفسه. وفي كتابات ومقاطع فيديو تم نشرها على الإنترنت قبل واقعة إطلاق النار، دافع القاتل عن الإبادة الجماعية وأعرب عن كراهيته للمهاجرين ونظريات المؤامرة التي نشرها النازيّون الجدد، وكتب منشورات حول نظرية مؤامرة الاستبدال العظيم، وهي الادعاء بأن اليهود والليبراليين يريدون استبدال العرق الأبيض الأوروبي بغير الأوروبيين.

لكن الإدانة الرسمية كانت سريعة. حيث شجبت المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل "سمّ" العنصرية والكراهية في ألمانيا. وعبّرت وزيرة العدل، كريستين لامبريشت، عن قلق الألمان من السرطان الذي ينتشر داخل الجسم السياسي عندما قالت إن عمليات القتل التي ارتكبت ضد المهاجرين أظهرت أن "التطرف اليميني والإرهاب اليميني هما أكبر تهديد لديمقراطيتنا اليوم". كما أقر وزير الداخلية الألماني، هورست سيهوفر، أن "التهديد الذي يمثله التطرف اليميني ومعاداة السامية والعنصرية كبير للغاية".

ويتضح الأمر كذلك من خلال الخسائر المأساوية التي حدثت في العام الماضي. ففي أكتوبر، قتل مهاجم شخصين وحاول اقتحام كنيس يهودي في هالي بوسط ألمانيا. قام الجاني ببث الهجوم مباشرة على الإنترنت واعترف لاحقًا بدوافعه اليمينية المتطرفة.

وفي يونيو، تم إطلاق الرصاص على رأس فالتر لوبكه، وهو سياسي إقليمي دعّم سياسة ميركل في الترحيب باللاجئين السوريين، من مسافة قريبة. وكان للقاتل صلات باليمين المتطرف. وكان هذا أول اغتيال لسياسي على يد متطرف يميني منذ نشأة جمهورية ألمانيا الاتحادية في عام 1949.

وأشار سيهوفر إلى فترة زمنية أطول واتجاه متطرف أكثر عمقا، وخاصة هجوم عام 2016 على المهاجرين في مركز تجاري في ميونيخ، والمسار الدموي الذي امتد من عام 2000 إلى عام 2007 وتضمن عمليات قتل المهاجرين على أيدي مجموعة أطلقت على نفسها اسم "الاشتراكيون الوطنيون تحت الأرض".

وهناك أمران يستحقان الملاحظة. أولاً، وحتى وقت قريب، كان التهديد الذي يمثله اليمين المتطرف أمرا مستهانا به ولا ينال ما يستحقه من الأهمية في ألمانيا وفي معظم أنحاء أوروبا، وكان التركيز على التطرف الإسلامي حتى حدثت هجمات كرايستشيرش وتشارلوتسفيل ومسجد فينسبري بارك.

وكان الأمر منطقيا، في الوقت الذي واجهت فيه لندن ومدريد وباريس وبروكسل ومدن أوروبية أخرى هجمات جهادية متكررة، كانت هناك رؤية تقرّ بأن هناك تهديدا إرهابيا خطيرا يحدث خلف الرادار. وهذا أحدث تغييرا في ألمانيا وبريطانيا.

وعلى مدار عامين، أجرت وكالة الاستخبارات البريطانية تحقيقات جادة في مؤامرات اليمين المتطرف المشتبه فيها، والتي تصفها الشرطة بأنها أسرع تهديد إرهابي في البلاد.

وفي الآونة الأخيرة، وافقت الحكومة الألمانية على مشروع قانون لمقاومة خطاب الكراهية والتطرف على الإنترنت، بما في ذلك النوع الذي قدمه حزب ألمانيا البديل المعادي للمهاجرين في ألمانيا.

وعلى الرغم من أن حزب البديل الألماني لا يؤيد العنف بشكل صريح، إلا أن خطاباته قد تغذي الكراهية والتطرف. وبعد حادثة هاناو أصدر حزب البديل الألماني إدانة رسمية، لكنه أشار أيضا إلى أن سياسات ميركل المفتوحة للاجئين كانت السبب في أن الألمان العاديين "انقلبوا".

لكن الهجوم المعارض الذي أصدره الحزب كان قويا. ففي حين أن الحزب يبلغ عمره 7 سنوات فقط وحصل على أقل من 13 في المئة من الأصوات في الانتخابات الأخيرة، فإنه يضم أعضاء في جميع المجالس التشريعية في ألمانيا وعددها 16، وهو أكبر حزب معارض على المستوى الوطني.

إن قدرة حزب البديل على التأثير في الخطاب السياسي الألماني تنقلنا إلى النقطة الرئيسية الثانية محل النقاش: وهي صعود الحركات الشعبوية اليمينية في الديمقراطيات الغربية، والتي أصبحت سلعتها الأساسية هي كراهية الأجانب، حيث تستخدمُ ضمان حرية التعبير لنشر هذه الآراء وكسب مكان في الهيئات التشريعية عن طريق الأدوات الديمقراطية.

حان الوقت لشن معركة للحفاظ على الحريات من خلال مواجهة جميع أشكال الكراهية والعنصرية.

بحث عن شرعية أميركية

هيئة تحرير الشام تريد استنساخ نموذج طالبان في التفاهم مع واشنطن

ملاحقة الكيانات غير الملتزمة بالضوابط الأميركية للجهاد المحلي

أغرت معادلة تعميق الجهاد المحلي ومفارقة الجهاد العالمي مقابل فتح قنوات للتفاوض بعض الفصائل الجهادية في سوريا الباحثة عن طوق إنقاذ واعتراف دولي بشرعيتها. ورجّح الاتفاق بين الإدارة الأميركية وحركة طالبان الأفغانية حدوث تأثيرات على سلوكيات الجهاديين في دول مختلفة، واحتمال عدم اقتصارها على الساحة الأفغانية.

هشام النجار
كاتب مصري

أول الطامحين لإعادة إنتاج "المنجز" الطالباني غير المسبوق في تاريخ الجهاديين، والذي يبدو تفكيرا خارج الصندوق بالنظر إلى مناهج الفصائل المتطرفة وأدبيّاتها، هي هيئة تحرير الشام الناشطة في شمال غرب سوريا، حيث تظهر تصرفات الحركة وتصريحات قادتها ومؤشرات دولية وإقليمية عدة أنها مرشحة في أقرب وقت لتتحول إلى طالبان سوريا.

تلعب البراغماتية دورًا محوريًا في السعي لاستنساخ النموذج الطالباني داخل المشهد السوري، بالنظر إلى أن هناك عوائق مرتبطة بالفروق الجوهرية بين الحالتين. فروسيا حاضرة بقوة في سوريا بالمقارنة بأفغانستان، علاوة على تواضع إمكانيات تحرير الشام وضآلة حظوظها على صنع الفارق في الحالة السورية، بعيدا عن محدودية هدفها الخاص بها، وهو التمكين لتنظيم جهادي محلي يحكم بسلطة السلاح مساحة محدودة من سوريا برعاية دولية وإقليمية.

معالم المرحلة المقبلة

وعكس الظهور الإعلامي المكثف لقائد تحرير الشام أبومحمد الجولاني مؤخرا أزمة كبيرة تمرّ بها حركته أكثر من فرضية تعبيره عن مشروع مبنيّ على حضور ونشاط متراكم لسنوات عديدة كحال طالبان أفغانستان.

ورغم أن الأيديولوجيا واحدة، غير أن التكتيك والسلوك مختلفان، فضلا عمّا تعانيه هيئة تحرير الشام في سوريا من مشكلات وانقسامات داخلية لا تعاني منها طالبان الأفغانية التي تسيطر على الجزء الأكبر من الأرض.

سعى الجولاني خلال حواراته الأخيرة لإضفاء الملمح الطالباني على حركته عبر اجتزاء سطحي دعائي مفاده أن كفاحه ضد روسيا يعيد للأذهان وقائع الحرب الأفغانية ضد الاتحاد السوفييتي، ملمّحا إلى أن هذا يمنحه فرصة الشراكة مع الغرب والولايات المتحدة كطرف مناوئ في الداخل السوري للنفوذ الروسي.

سبقت هذه الحوارات كلمة مرئية حدد فيها الجولاني معالم المرحلة المقبلة في إدلب ومحيطها، مشددا على أن القتال الآن مع روسيا وليس ضد النظام السوري الذي ولّى من غير رجعة، زاعمًا أن موسكو تريد إعادة مجدها الذي يرتبط في أدبيات المتشددين بالجهاد الأفغاني لما له من حظوة عندهم على اختلاف انتماءاتهم.

تعمّد في ثنايا الحوارات التسويق لنفسه، على الرغم من بداياته المعروفة وكيلاً عن تنظيم القاعدة في المشهد السوري، كشريك في مكافحة الإرهاب، واضطر لمبايعة تنظيم القاعدة مجبرا كسبيل للهروب من مبايعة داعش، متعهدا بعدم اتخاذ سوريا منصة لإطلاق عمليات خارجية والالتزام بالمرجعية السورية.

ما حققته طالبان من حاضنة شعبية يعود إلى رسوخ حالة سلفية مجتمعية منحازة للتشدد والانغلاق وقابلة لأن تُحكم بتلك التصورات المغالية فكرا وممارسة، وهو ما لا يتوفّر في الساحة السورية التي تميل لمدارس دينية معتدلة، مثل الأشعرية والصوفية، ما يفسر بجانب الفشل الإداري لهيئة تحرير الشام بعد تشكيلها ما يُطلق عليه "حكومة الإنقاذ في إدلب"، الرفض الشعبي ضد حكم الهيئة في الشمال السوري.

الأمر الذي حاولت صحيفة "إباء" المعبرة عن هيئة تحرير الشام تصويره قبل أيام في إطار سياقات أخرى، رابطة في مقال عنوانه "أيام اختبار والفرج قريب" مصير الهيئة بمصير خمسة ملايين نسمة يرفضون نظام بشار الأسد.

إضفاء الولايات المتحدة الشرعية على حركة طالبان شجع هيئة تحرير الشام في سوريا على اقتناص الفرصة رغم أزماتها الداخلية وفشلها الإداري وتعقيدات المشهد على الأرض، للإبقاء على أمل قيامها بدور في مستقبل سوريا بعد تراجع النفوذ التركي وتذبذبه، وخشيةً من صفقات الأتراك مع الروس، والتي غالبا ما تكون على حساب مكتسبات الفصائل المسلحة.

تراهن الهيئة التي تضم ما يزيد على عشرين ألف مقاتل بما يعنيه هذا العدد الضخم في هذه المساحة الاستراتيجية المحدودة بشمال غرب سوريا، على التجاوب الأميركي مع ما قدمته الحركة على الأرض فعليا من دلائل على صلاحيتها واستحقاقها لتُرفع من قوائم الإرهاب وفق الرؤية الأميركية.

دفعت رغبة واشنطن في سحب ذرائع موسكو وطهران والنظام السوري في مواصلة عملياتهم العسكرية بمناطق سورية عديدة المبعوث الأميركي إلى سوريا جيمس جيفري لإطلاق تصريحات مطمئنة لقادة هيئة تحرير الشام.

استهداف المناوئين

تعاملت الهيئة بجرأة وتحلّى قائدها بقدر كبير من المراوغة والمكر، ليس فقط عبر فك الارتباط بالقاعدة وعدم الالتزام بأدبياتها، بل عبر اللعب بباقي الفصائل والتنظيمات وتحدي أيمن الظواهري ومحاربة تنظيمه البديل في سوريا "حراس الدين"، والتعاون أمنيا ومعلوماتيا مع الطرف الأميركي لتصفية قادة القاعدة في سوريا ممن لا يزالون أوفياء لمنهج التنظيم الأمّ ولأدبيات الجهاد العالمي.

لينأى بنفسه عن التفسير الذي يعطيه تنظيم القاعدة للجهاد الدولي، لم يكتفِ الجولاني بإظهار المزيد من المحلية، بل نشط في ملاحقة قادة وأعضاء كل كيان لا يلتزم بالضوابط الأميركية للنشاط الجهادي المحلي التي صارت بالاتفاق الأخير مع طالبان بمثابة خطة العمل للكيانات المسلحة الانفصالية المناوئة لحكومات بلادها في حال احتاجت لاعتراف دولي بنشاطها.

ربما يشكل إسباغ الشرعية على هيئة تحرير الشام مخرجا لبعض القوى كعائق أمام بسط روسيا سيطرتها على المنطقة، لكنه يعني في المقابل تسليم إدلب لحكم المتطرفين

وجّه أنصار تنظيم "حراس الدين" الذي يُعدُّ فرع القاعدة بسوريا اتهامات للجولاني بالمسؤولية عن تحديد مواقع قادتهم وتسليمها لقوات التحالف الدولي ما أدّى لمقتلهم.

منطقية الاتهامات ليست فقط لكون الجولاني المستفيد من تصفية قيادات "حراس الدين"، على خلفية الخشية من تنامي نفوذ الأخير داخل محافظة إدلب، بل أيضًا لأن قائد تحرير الشام عثر بقيامه بهذه المهام على ما يُقنع الأميركيين للاعتراف به خارج التصنيف الإرهابي، فارضا سلطة الأمر الواقع على المساحة التي يحكمها في الشمال السوري بدعم غربي.

تبرهن الشكوك المثارة حول إمكانية تهديد "حراس الدين"، وهو تنظيم محاصر في إدلب وحلب ولا يزيد على ألفي مقاتل، لأميركا وأوروبا على أن تحولات تحرير الشام شكلية بغرض منح الوجاهة للتجاوب الأميركي، وصولًا إلى استنساخ النموذج الطالباني في سوريا وشرعنة تعميمه في أكثر من بؤرة صراع.

أظهر الجولاني الكثير من الدهاء في أسلوب توظيفه لزعيم القاعدة أيمن الظواهري، عندما لم يفكر الأخير سوى في الثأر ردا على فك تحرير الشام ارتباطها بالقاعدة، كما فعلت مع داعش، ما دفعه لتأسيس فرع جديد تابع له في سوريا تحت اسم "حراس الدين" في ديسمبر 2017.

ومع أن غالبية هذا التنظيم لا تنتمي إلى التيار الجهادي العالمي بل إلى التيار السلفي المصري والأردني، ونشط غالبيتهم ضمن تنظيمات سلفية ذات صبغة محلية، إلا أن الظواهري إمعانا في المكايدة لوّح بأن التنظيم الجديد سيكون بقيادة حمزة نجل أسامة بن لادن الذي وصل إلى سوريا خلال عام 2016.

منح اسم بن لادن، علاوة على احتواء فرع القاعدة الجديد بسوريا على عدد من المنشقين عن داعش بعد انكساره العسكري، زعيم تحرير الشام فرصته للتخلص من منافسيه، ولتقديم نفسه للأجهزة الأميركية كشرطيّ يلعب الدور الأهم في تصفية رؤوس الإرهاب العالمي.

ويُذكر إسهامه في القضاء على قادة الصف الأول في "حراس الدين"، وفي خطة تصفية حمزة بن لادن وأبوبكر البغدادي زعيم داعش السابق.

استوفى الجولاني الشرط الأميركي حيث لا يهم البقاء وفيا لأيديولوجيته الأساسية بل أن يتحلى بالواقعية، ومن أجل الحفاظ على سلطته المحلية عليه عدم تهديد المصالح الغربية في المحيط السوري أو خارجه.

معضلة نموذج طالبان الذي تستنسخه هيئة تحرير الشام في سوريا، أنه مجرد تحول شكلي لغض البصر الدولي عن تغولها وكوسيلة لتحقيق مصالحها وكسب الشرعية الدولية.

يتشبث الجهاديون بحبل الاعتراف الدولي في سوريا رهانا على الرغبة في إنجاح السلام مع طالبان، وتعميمه على فروع القاعدة في مختلف مناطق العالم، في حين يعانون من أزمات توحي بقرب انهيار تنظيماتهم. ربما يشكل صبغ الشرعية على هيئة تحرير الشام مخرجًا لبعض القوى كعائق أمام بسط روسيا سيطرتها على المنطقة، لكنه يعني في المقابل تسليم إدلب التي يقطنها أربعة ملايين سوري لحكم المتطرفين.

لا يرفض السكان المحليون حكم الهيئة فقط لأنها تستجلب القصف الروسي لمناطقهم، وإنما لأنها فاشلة إداريا وتعتمد على فرض الإتاوات والضرائب، وفاسدة ماليا باعتراف قادة منشقين عنها، ولأنها تطبق أقسى نماذج السلطة في الاستبداد الديني، وكل هذا لا يزعج واشنطن طالما أن الهيئة لا تنوي القيام بعمليات خارج مساحة سيطرتها.